٧٢ جـــلال الدين السيوطى المؤرخ والعالم والفقيه

فى الفكر الإسلامى لم يكد يمضى على الرسالة الدينية الجديدة قرن من الزمان حتى نشطت حركة التجميع لأطراف المعارف، ومعها حركة التقنين العلمى، وكان ذلك ملحوظاً فى علوم اللغة، وفى الفقه، ثم نقل ثقافات الآخرين. حتى إذا جاء القرن العاشر وامتداده فى القرن الحادى عشر (الرابع الهجرى وامتداده فى الخامس الهجرى) بلغ التنوير ذروته، فكانت رسائل إخوان الصفا بمثابة دائرة المعارف التى هى عادة رمز يشير إلى التنوير من ناحية جمع المعلومات.

ومن هنا يمكن القول بأن الثقافة العربية الإسلامية كانت رائدة فى هذا المجال الموسوعى، مما يميزها عن غيرها من الثقافات العالمية بعد ذلك، ويجعلها سابقة عليها.

وهذه الحركة الموسوعية كانت تنشط تبعاً للظروف التى تمر بها هذه الثقافة، سواء كانت هذه الظروف طيبة أو غير ذلك.

ولعل هذه الحركة الموسوعية فى الثقافة العربية الإسلامية كانت تنشط إذا ما مر بالعالم الإسلامى محنة من المحن التى يُمتحن بها، وهنا يهرع المؤلفون إلى جمع المعارف التى حصلها السابقون حتى يستفيد منها اللاحقون. وقد حدث هذا حين كانت محنة المسلمين فى الأندلس فى أواخر القرن الثامن الهجرى بسنوات قليلة، وبالتحديد فى سنة سبع وتسعين وثمانمائة، يوم أن خرج المسلمون من أسبانيا، وانقطعت عن العرب كل السبل إلى وَصْلِ تقدمهم، أو الاستمرار فيما بدءوا.

وقد سبق محنة سقوط غرناطة العربية فى الأندلس، وزوال السيادة العربية فى

الغرب محنة أخرى فى الشرق، حين سقطت بغداد فى أيدى المغول سنة ست وخمسين وستمائة (٦٥٦ هـ) وانتهت بدخول العثمانيين سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة (٩٢٣ هـ). وهذه الفترة التى امتدت إلى ما يقرب من ثلاثة قرون سميت بالعصر المغولى، وذلك بسيادة المغول للرقعة العربية من حدود الهند شرقاً إلى حدود سوريا غرباً.

وكما بطش المغول بالمسلمين فى الشرق بطش الأسبان بهم فى الغرب، ومن ضمن ما صنعوا إحراقهم المكتبات العربية، وإتيانهم على الكتب. ونفس الأمر فعله الأسبان فى الغرب، حيث أحرقوا وأبادوا عشرات الآلاف من الكتب العربية، والتاريخ يذكر ما فعله الكاردنيال «زيمتسى» فى آخر القرن التاسع بمكتبة غرناطة حين حرم الوجود الثقافى نحو ثمانين ألف مجلد.

وبسبب هذا العسف الذى لحق المسلمين فى الشرق العربى على أيدى المغول فى بغداد، والغرب الأندلسى على أيدى الأسبان فى غرناطة، هاجرت الجموع من الغرب والشرق إلى مصر، التى لم تكن قد امتدت إليها محنة الغرب الأسبانى أوالشرق المغولى، فهاجر إليها العلماء، حيث لا أسبان ولا مغول، وكان من بين هؤلاء عدد من المؤرخين فى مصر والشام، عرفتهم الثقافة العربية الإسلامية، نذكر منهم ابن خلّكان (٦٨١ هـ) صاحب وفيات الأعيان، وابن أبى أصيبعة، (٦٦٨هـ) صاحب طبقات الأطباء، وصلاح الدين الصفدى (٧٦٤ هـ) صاحب الوافى بالوفيات، وأبا الفدا (٧٣٢ هـ) صاحب المختصر فى أخبار البشر، والذهبى (٧٤٨ هـ) صاحب تاريخ الإسلام، وابن شاكر الكتبى (٧٥٤ هـ) صاحب كتاب فوات الوفيات، وابن حجر العسقلانى (٨٥٢ هـ) صاحب الدرر الكامنة، والمقريزى (٨٤٥ هـ) صاحب الخطط، وغيرهم.

كما ظهرت نتيجة أخرى لهذه المحنة التى ألمت بالعالم العربى ـ غربه وشرقه ـ بدت فى لهفة المؤلفين على الجمع الموسوعى، حتى أصبح هذا العصر يسمى بعصر الموسوعات أو عصر المجاميع. حيث خاف العلماء على اللغة والأدب من الضياع، فاستكثروا من المعاجم، ولا عجب فى ذلك، حيث أحس الناس وقتئذ ـ بانطواء صفحات، وزوال معالم، وذهاب تاريخ فيما بين عشية وضحاها.

ومن أصحاب هذه الموسوعات والمجاميع والمعاجم: ابن منظور (٧١١ هـ) صاحب لسان العرب، والوطواط (٧١٨ هـ) صاحب نهاية الأرب، وابن فضل الله العمرى (٧٤٨ هـ) صاحب مسالك الأبصار، والفيروزا بادى (٨١٧ هـ) صاحب القاموس المحيط، والقلقشندى (٨٢١ هـ) صاحب موسوعة صُبح الأعشى.

وفى ظل هذه المحنة التى شملت العالم العربى شرقه وغربه، وتلك اللهفة الحافزة لجمع المعارف والمعلومات، وتلك الغيرة الشديدة على تسجيل الأحداث وتحليلها ـ نشأ المؤرخ والعالم والفقيه جلال الدين السيوطى (٨٤٩ هـ) وعاش ومات، وأرخ لنفسه قائلا: «... وأما جدى الأعلى همام الدين فكان من أهل الحقيقة ومشايخ الطرق الصوفية.. وقد بنى مدرسة بأسيوط وأوقف عليها أوقافاً وكان مولدى ـ بالقاهرة ـ بعد المغرب ليلة الأحد، مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة، وحُملت فى حياة أبى إلى الشيخ محمد المجذوب، وكان من كبار الأولياء بجوار المشهد النفيسى بالقاهرة... ونشأت يتيماً، فحفظت القرآن ولى من العمر دون ثمانى سنوات. ثم حفظت العمدة، ومنهاج الفقه والأصول، وألفية ابن مالك. وشرعت فى الاشتغال بالعلم من مستهل سنة ٨٦٤ هـ، فأخذت الفقه والنحو عن جماعة من الشيوخ، وأخذت الفرائض عن علامة زمانه الشيخ شهاب الدين الشارمساحى، الذى يقال إنه بلغ السن العالية، وجاوز المائة بكثير.. وأُجزتُ بتدريس العربية فى مستهل سنة ٨٦٦ هـ، وألفت فى هذه السنة. وكان أولَ شئ ألفته شرح الاستعاذة والبسملة، وأوقفت عليه شيخنا شيخ الإسلام علم الدين البلقينى، فكتب عليه تقريظاً. ولازمته فى الفقه إلى أن مات، وأُجزت بالتدريس والإفتاء من سنة ٨٧٦ هـ...

ثم لزمت شيخ الإسلام شرف الدين المناوى، فقرأت عليه قطعة من المنهاج، وسمعته عليه فى التقسيم، وسمعت دروساً من شرح البهجة وحاشية عليها من تفسير البيضاوى.

ولزمت فى الحديث والعربية، شيخنا الإمام العلامة تقى الدين الشبلى الحنفى، فواظبته أربع سنين، وكتب لى تقريظاً على شرح ألفية ابن مالك وعلى جمع الجوامع فى العربية، وكان من تأليفى، وشهد لى غير مرة بالتقدم فى العلوم بلسانه

وبنانه. ورجع إلى قولى مجرداً فى حديث، فإنه أورد فى حاشيته على الشفاء حديث ابن أبى الجمراء فى الإسراء. وعزاه إلى تخريج ابن ماجه، فاحتجت إلى إيراده بسنده، فكشفت ابن ماجه فى مظنته فلم أجده، فمررت على الكتاب ـ ثلاث مرات ـ فلم أجده، ورأيته فى معجم الصحابة لابن قانع، فجئت إلى الشيخ وأخبرته، فبمجرد ما سمع منى ذلك أخذ نسخته، وأخذ القلم، فضرب على لفظ ابن ماجه، فأعظمت ذلك وهبته لعظم منزلة الشيخ فى قلبى واحتقارى فى نفسى...

ولزمت شيخنا العلامة محيى الدين الكافيجى أربع عشرة سنة، فأخذت عنه الفنون من التفسير والأصول العربية والمعانى وغير ذلك، وكتب لى إجازة عظيمة.

وحضرت عند الشيخ سيف الدين الحنفى دروساً عديدة فى الكشاف والتوضيح وحاشيته عليه، وتلخيص المفتاح والعضد.

وشرعت فى التصنيف فى سنة ست وستين وثمانمائة، وبلغت مؤلفاتى إلى الآن ثلاثمائة كتاب، سوى ما غسلته ورجعت عنه.

وسافرت بحمد الله إلى بلاد الشام، والحجاز، واليمن، والهند، والمغرب، ولما حججتُ شربت من ماء زمزم لأمور، منها: أن أصل فى الفقه إلى مرتبة شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى، وفى الحديث إلى رتبه الحافظ ابن حجر.

وأفتيت من مستهل سنة إحدى وسبعين وثمانمائة وعقدت إملاء الحديث من مستهل سنة اثنتين وسبعين، ورزقت التبحر فى سبعة علوم: التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والمعانى، والبيان، والبديع على طريقة البلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة... والذى أعتقده أن الذى وصلت إليه من هذه العلوم السبعة ـ سوى الفقه والنقول ـ التى أطلعت عليها فيها ـ لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد شياخى، فضلا عمَّن دونهم، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه، بل شيخى فيه أوسع نظراً وأطول باعاً. ودون هذه السبعة فى المعرفة أصول الفقه، والجدل، والتصريف. ودونها الإنشاء والتوسل والفرائض، ودونها القراءات، ولم آخذها عن شيخ، ودونها الطب، وأما علم الحساب فهو أعسر شئ علىّ، وأبعده من ذهنى...

وقد كملت عندى الآن آلات الجهاد بحمد الله تعالى، أقول ذلك تحدثاً بنعمة الله تعالى لا فخراً.

وقد أزف الرحيل، وبدأ الشيب، وذهب أطيب العمر، ولو شئت أن أكتب فى كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية القياسية ومداركها، ونقوضها، وأجوبتها، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها.. لقدرت على ذلك من فضلٍ، لا بحولى ولابقوَّتى...

وقد كنت فى مبادئ الطلب قد قرأت شيئاً فى علم المنطق، ثم ألقى الله كراهيته فى قلبى، وسمعت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته.. فعوضنى الله عنه علم الحديث، الذى هو أشرف العلوم وأما مشايخى فى الرواية سمعاً وإجازة فكثيرون.. عددتهم نحو مائة وخمسين.. وهذه أسماء مصنفاتى....». وبدأ فى تصنيف كتبه.

وقد أحصى بروكلمان نحو خمسة عشر وأربعمائة مؤلف.

كما أحصى له حاجى خليفة فى كتابه كشف الظنون نحوَ ستة وسبعين وخمسمائة كتاب، ومن قبل أحْصَى له ابن إياس فى تاريخه بأن كتبه بلغت الستمائة، وأحصى له الشعرانى فى ذيل طبقاته أربعمائة وستين مؤلفاً.

ويعلق الأستاذ أحمد الأبيارى على كثرة مؤلفات السيوطى قائلا: إذا عرفنا هذا نكاد نفهم كيف اتسعت الأعوام الخمسة والأربعين التى عكف فيها السيوطى على العبادة والتأليف.. لهذا العدد من الكتب فهو قد بدأ التأليف ـ كما يقول فى ترجمته لنفسه ـ عام ٨٦٦ هـ، وكانت وفاته عام ٩١١ هـ.. فإننا لا نستكثرها عليه..

وقد عاش السيوطى عظيماً، يعف عمَّا فى يد الأمراء والوزراء وسَعَى إليه هؤلاء الأمراء والوزراء. وعز فى أنفسهم حين عز فى نفسه.

وحسبك عنه أنه لما مات عام ٩١١ لم يتعرض أحد لتركته، مع أن زمانه كان زمن جَوْر، وإليك ما قاله جمال الدين الشبلى فى كتابه «السَّنَا الباهر بتكميل النور السافر»: «دُفن جلال الدين السيوطي فى قبر والده، وعمل له الأمير قرقماش..

صندوقاً من خشب، وستراً أسود مطرزاً بالأبيض بآية الكرسى، وصار ضريحه مقصوداً بالزيارة للتبرك».

ويقول الشعرانى فى ذيل طبقاته ولما جئت إلى مصر قبيل موت السيوطى اجتمعت به مرة واحدة تبركاً، ثم بعد شهر سمعت ناعيه ينعى موته. إلى أن يقول: «مات جلال الدين السيوطى رضى الله عنه فى ليلة الجمعة عام ٩١١. وكان له مشهد عظيم».

وقد حقق العلامة أحمد تيمور مكان قبره فى كتيب صغير بعنوان قبر الإمام السيوطى، وتحقيق موضعه، فانتهى إلى أنه فى المكان المعروف عند العامة ببوابة السيدة عائشة. حيث يقول: «وقبره مشهور عند أهل هذه الناحية، الخَلَف عن السَّلَف؟ من زمن وفاته إلى اليوم، ويرجع الفضل فى حفظه إلى حسن اعتقاد الناس فيه، وقصدهم إياه بالزيارة كل حين، ويقيمون له مولداً كل سنة فى نصف شعبان.

وفى مدينة أسيوط مسجد يُعرف بجامع سيدى جلال الدين السيوطى، وبه ضريح تزعم العامة جهلاً أنه ضريح السيوطى، ولم يُعرف سبب نسبة هذا المسجد إلى السيوطى ويقول أحمد تيمور: والذى يسبق إلى الظن أنه المدرسة التى ذكرها السيوطى بكتابه «حسن المحاضرة».. تلك التى بناها أجداده بأسيوط.

* * *